مكانة علم الأخلاق من الفلسفة :

هذا البحث يتطلب منا أولا أن نعرف شيئاً عن الفلسفة قبل أن نعرف مكانة علم الأخلاق منها، فما يكون لنا أن نتصور هذه المكانة قبل أن نتصور الفلسفة . لذلك وعلى شيء من الاجمال نقدم بين يدى هذا البحث كلمة عن الفلسفة من نواحيها المختلفة .

كلمة فلسفة ليست عربية ولا شرقية فما معناها ، وما مرماها ؟

يقول : « بارتلمى سانتهلير » فى مقدمة كتاب الكون والفساد لأرسطوطاليس

« إن فيثاغورس سئل عن نفسه فأجاب بأنه « فيلسوف » وهو اسم لم يسمع من قبل » .

ويروى ابن أبي أصيبعة فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء أن « فلوطرخس » قال : « إن فيثاغورس أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم »[1].

وعلى ذلك يكون « فيثاغورس[2] » هو أول من استخدم لفظ الفلسفة بمعنى « البحث عن طبيعة الأشياء » .

وسواء أصحت هذه الرواية ، أم صح ما يروى عن المؤرخ اليونانى « هيرودوت » من أن « كريسس » قال [3] لسولون : « لقد سمعت أنك جبت

---

(١) ج ١ ص ٤٣ طبعة المطبعة الوهبية .

(٢) فيلسوف يونانى كان فى القرن السادس قبل الميلاد وكان يقول بتناسخ الأرواح

(٣) يقال إن كريسس هو قارون ، وسولون مشرع « أثينى » سنة ٥٩٤ ق . م ومن تشريعاته « لا يجب على المرأة أن تتجهز لزوجها بأكثر من ثلاثة أثواب وأمتعه قليلة الثمن خوفاً على أهلها من الفقر » .

كثيراً من البلدان متفلسفاً» أى متطلباً للمعرفه [1] وسواء أصح هذا أم ذاك.

فإن الذى لا شك فيه أن كلمة «فلسفة» كلمة يونانية مشتقة من كلمتين اثنتين:

الأولى «فيلوس» ومعناها «محبة» والثانية «سوفيا» ومعناها «الحكمة»

فيكون إذن: معنى كلمة فلسفة «محبة الحكمة» ومعنى فيلسوف «محب الحكمة» أو هو صاحب العقل الذى يدرس الأشياء، ويدرس نفسه والناس.

وكان اليونان الأولون الذين عُنوا بالبحث عن حقيقة المادة التى وُجد منها هذا الكون «كطاليس الملطى» [2] و«أنكسمندر» [3] و«أنكسمنيس» [4] وغيرهم يسمون أنفسهم «حكماء» فلما جاء فيثاغورس أنكر عليهم أن يسموا أنفسهم بهذا الاسم، ودفعه تواضع العلماء إلى أن يستخدم لفظ «فيلسوف» بدل كلمة «حكيم» تأدباً فالحكمة لله وحده.

---

(١) مبادىء الفلسفة تأليف ا. س. راپورت (ترجمه إلى العربية الدكتور أحمد أمين).

(٢) مؤسس المدرسة «الأيونية» ولد حوالى سنة ٦٣٩ ق. م وتوفى سنة ٥٤٦ ق. م أقام ردحاً من الزمن فى القطر المصرى على عهد «أمازيس» قال: إن الماء مصدر الأشياء كلها.

(٣) ٦١١ ق. م – ٥٤٧ ق. م «تقريبا» يقال: إنه كان تلميذا لطاليس عاصره وعاش معه فى ملطيه. قال: إن أصل الكون مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود.

(٤) ٥٨٨ – ق. م – ٥٢٤ ق. م «تقريبا» قال: إن المادة التى يتكون منها الكون هى الهواء.

وليس بغريب على فيثاغورس أن يحمل نفسه على هذا الأدب . فإن صح ما يُروى عنه كان له فى باب التدين قدم راسخة .

يُروى أنه كان يقول: «إن فوق عالم الطبيعة عالماً روحانياً نورانياً لا يدرك العقل حسنه وبهاءه ، وأن الأنفس الزكية تشتاق إليه ، وأن كل إنسان أحسن تقويم نفسه بالتبرى من العجب ، والتجبر ، والرياء ، والحسد ، وغيرها من الشهوات فقد صار أهلا لأن يُلحق بالعالم الروحانى ، ويطلع على ما يشاء من جواهره من الحكمة الإلهية ، وأن الأشياء الملذذة للنفس تأتيه حينئذ إرسالا كالألحان الموسيقية الآتية إلى حاسة السمع فلا يحتاج الإنسان أن يتكلف لها طلباً » .

وإذا كان فيثاغورس أول من استخدم كلمة « فيلسوف » فإنك لتراه يحدد الغاية من «الفلسفة» ومعنى «الفيلسوف» فيما يُروى عنه يقول : « حال الناس فى الحياة يسعون فيها يُشبه حال الجمهور يتقاطرون إلى الأعياد الرسمية ، ففى جمعيات الجمهور الفسيحة لكل واحد من الساعين إليها أغراض مختلفة أحدهم يقصدها ليبيع فيها بضائعه مدفوعا بحب الكسب ، وآخر لا يقوده إليها إلا حب المجد والرغبة فى أن ينال قصب السبق فى القوة أو فى المهارة . وطائفة أشرف من هؤلاء لا يظهرون فيها إلا لمشاهدة محال تلك الاجتماعات ، وعجائب الصناعة المعروضة لأنظار الجميع .

كذلك فى الحياة للناس الذين تضمهم الجمعية الإنسانية مشاغل متباينة . فمنهم المجرورون بجواذب الثروة التى لا تقاوم . وآخرون مملوك عليهم أمرهم بالطمع فى السلطان والشرف ، وهما لا ينالان إلا بالحروب الجادة والمنافسات التى تسفك الدماء .

ولكن الغرض الأسمى للرجل هو إمعان النظر فيما فى هذا الكون من الجمال المتنوع . وبذلك يستحق عنوان فيلسوف .

فمن الحسن أن ينظر إلى أقطار السموات الفسيحة يتتبع سير الأفلاك التى تتحرك فيها على قدر غاية فى النظام . ولكنه لا يستطيع فهمه جيداً إلا بالمبدأ المعقول المجرد الذى يسير الكون ، ويُحصى كل شيء عدداً ومقياساً .

فالحكمة تنحصر فى التعرف بقدر الممكن لهذه الظواهر الإلاهية الأبدية الأولية التى لا تتغير .

والفلسفة ليست إلا التتبع المستمر لهذه الدراسة الشريفة التى تسير الناس وتُصلحهم .

وسواء أكانت الغاية من الفلسفة هى كشف الحقيقة لا لشيء آخر أم كانت الغاية من الفلسفة شيئاً آخر غير كشف الحقيقة هو السعادة ، فان الغاية التى رسمها فيثاغورس فى هذه الكلمة القيمة : « العلم لذات العلم » لا تزال لها المكان الأول عند الفلاسفة بل وفيها السعادة فقد كان « أرسطو » يعتبر أرقى أنواع الفضائل « الفضيلة التأملية » .

وإذا كانت اللغة اليونانية قد عرفت كلمة « فلسفة » على لسان فيثاغورس فى القرن السادس قبل الميلاد فمتى عرفتها اللغة العربية ؟ .

عرفتها اللغة العربية بعد أن ترجمت كتب اليونان ، أو هى تُترجم كتب اليونان فى عصر العباسيين ، أو فى القرن الثانى لهجرة المصطفى صلوات الله عليه .

ولا يعنينا فى هذا الاستطراد عن الفلسفة لتبيين مكانة علم الأخلاق منها أن نتعرض لمسألة كونها شرقية أم غربية . فالذى يقطع به ثقات المؤرخين أن الفلسفة - « على معنى محاولة تفسير هذا الكون » - قد ولدت على أيدى اليونان فى آسيا الصغرى قبل الميلاد بستة أو سبعة قرون حتى لقبت بـ « أم الفلسفة ووطن الحكمة (١)

وأقدم ما وصل إلينا من شواهد الفكر اليونانى « الإلياذة والأوذسا » وهما تنسبان لـ « هوميروس » الذى وُلد وعاش على شطوط آسيا الصغرى وفى جزرها قبل الميلاد بنحو ألف عام .

وسواء أكانت القصيدتان لهوميروس أم لشعراء مختلفين أشهرهم « هوميروس » فنسبتا إليه باعتباره الجامع لهما فأن السذاجة واضحة فى قوله : فقد حاول أن يفسر الطبيعة تفسيرا يثير منك الضحك .

وإلا فكيف نفسر أن الأرض إلـه ، وأنها وَلدت الجبال والسماء ، ثم تزوجت من السماء المحيطة بها من كل جانب فولدت « أقيانوس » و « الأنهار » ، وأن أقيانوس المصدر الأول للأشياء .

وكيف نفسر أن الآلهة فى قمة « الأولمب » يؤلفون حكومة ملكية على رأسها « تزوس » لهم صفات البشر ، ولا يرعون الامن يتقرب إليهم كيفما كانت أخلاقه .

حقاً قول من يقول : « إن هذا الإنسان العاقل يربط وجوده بأشياء غير معقولة » .

---

(١) مقدمة الكون والفساد ترجمة أستاذنا أحمد لطفى السيد ، وقصة الفلسفة اليونانية للأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود .

يتقدم بنا الزمن قليلا حتى القرن الثامن فنسمع « هزيود »[1] يتكلم عن الدين والأخلاق بكلام تضيق فيه دائرة الخيال وتتسع فيه دائرة العقل فمثلا يقول : « السمك ، والوحش ، والطير ، يفترس بعضها بعضاً لأن العدالة معدومة بينها » ويقول : « من يضر الغير يجلب الشر على نفسه ، عين تزوس تبصر كل شيء إن ساعة العقاب آتية لا محالة ، وإن « تزوس » يهب القوة ، ويذل الأقوياء . يضع الذى يطلب الظهور ، ويرفع الذى يقعد فى الخفاء ، وغير ذلك كثير خلاصته أن الحق فوق القوة والإنسانية فوق الحيوانية[2]

ويجيء « طاليس » الملطى فى نحو القرن السادس قبل المسيح فيحاول تعرُّف المادة الأولى التى وجد منها هذا الكون فيقول : إنها الماء ، ويأتى « فيثاغورس » بعده فيقول: إنها العدد ، وأصل العدد الواحد وأصل الكون الواحد .ولكن يأتى بعده من يقول : نعم ولكن ليس هو الواحد الحسابى ولكنه هو الواحد القهار [3].

ثم يجيء بعد ذلك « سقراط » فيحول الفلسفة من السماء إلى الأرض أعنى أنه يوجه الفلاسفة إلى البحث فى الإنسان وقد كان همهم محصوراً فى تعرف المادة التى نشأ منها هذا الكون ، وفى المحرك الخفى لهذا العالم .

---

(١) نشأ فى « بوبثيا » فلاحا بعيدا عن بهرج الحضارة له ديوان « الأعمال والأيام » وينسب إليه ديوان « أصل الآلهة » .

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم .

(٣) صاحب هذا الرأى هو « إكزنو فنس » سنه ٥٧٠ ق . م . قضى الشطر الأعظم من حياته ضارباً فى مناكب الأرض . وهو بالاصلاح الدينى أشد صلة منه بالفلسفة

ولم يكن سقراط يرى أنه مخير فيما يفعل، بل كان يعتقد أنه مسير بوحي يُملي عليه ما يقول، ويرسُم له طريق المسير، ويُطلعه على نتائج الأعمال قبل حدوثها وهو إنما يؤدي رسالة فرضها عليه الآلهة ليس له عن أدائها محيص[1]

أوحى إليه في معبد «دلفي» يأتينا هذه الكلمة: «إعْرِف نفسك بنفسك» فكانت مفتاح معرفة الإنسان، أو مفتاح الفلسفة الإنسانية.

وإلى هنا تكون الفلسفة قد اتخذت لنفسها الموضوعات الآتية:

١ — مابعد الطبيعة، أو ماوراء المادة: ويبحث عن علة الموجودات، وهو الذي تسميه لغة الدين «الله»

وسبب تسمية هذا القسم بـ «ما بعد الطبيعه» أن أصحاب أرسطو وتلاميذه جمعوا أبحاثه المتعلقة بأصـــل الأشياء والتي تسمى «الفلسفة المبدئية» ووضعوها بعد أبحاثه المتعلقة بالطبيعيات، ومن هذا نشأ اسم ما بعد الطبيعة علماً على ذلك العلم

وهل سمى هذا العلم بغير هذا الاسم؟

سماه «وُلْف»[2] الفيلسوف الألماني «علم الموجود حقا» تمييزاً له عن الظواهر التي تُدرك بالحواس.

وسماه «ادْوَرْد هَرْتمان» مالا يُحس»

٢ — الفلسفة الطبيعية، وسمي هذا القسم حديثاً بـ «علم الكون» وجُعل علم الطبيعة منه. وأوضح أفلاطون الفرق بين الطبيعيات وما وراء

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية للأستاذين احمد أمين، وزكي نجيب محمود ص١٠٨

(٢) فيلسوف ألماني ١٦٧٩ — ١٧٥٤ نظم تعاليم «ليبنتز» وعدلها.

الطبيعة بأن الطبيعة « معرض التغير » وأما ماوراءها « فمعرض الثبات .

٣ ــ الفلسفة الإنسانية وتشمل :

(ا) علم النفس

(ب) « المنطق

(ح) « الأخلاق

(ى) « الجمال

(هـ) فلسفة القانون

(و) « التاريخ

(ز) علم الاجتماع

ذلك أن البحث فى الإنسان من ناحية ما هو عليه فذلك علم النفس . ومن ناحية عصمة ذهنه عن الخطأ فى التفكير يأتى علم المنطق . ومن ناحية مايجب أن يكون عليه الأنسان علم الأخلاق . ومن ناحية الشعور الذى ينبعث عن الشيء الجميل يأتى علم الجمال .

ومن ناحية تنظيم السلوك ببيان ما يجب ومالا يجب ، والتفريق بين أنواع القوانين المختلفة تأتى فلسفة القانون .

ومن ناحية المسائل التى تدور حول البحث فى علاقة الأشخاص بعضهم مع بعض يأتى علم الاجتماع وكذلك فلسفة التاريخ .

وعلى ذلك تكون منزلة علم الأخلاق من الفلسفة منزلة الجزء من الكل فعلم الأخلاق جزء من الفلسفة الإنسانية والفلسفة الإنسانية جزء من الفلسفة العامة .

أقف هنا لأقول: إن الفلسفة عند «سقراط» انحصرت فى دائرة الأخلاق باعتبارها أهم مايهم الأنسان ، وهذا معنى قول «شيشرون»[1]: إن سقراط استنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض أى أنه حول النظر من الفلك والعناصر إلى النفس .

وتدور الأخلاق على ماهية الإنسان . وكان السوفسطائيون يذهبون إلى أن الطبيعة الانسانية شهوة وهوى ، وأن القوانين وضعها المشرعون لقهر الطبيعة وأنها متغيرة بتغير العرف والظروف فهى نسبية غير واجبة الاحترام لذاتها

ومن حق الرجل القوى بالعصبة أو بالمـــال ، أو بالبأس ، أو بالدهاء ، أو بالجدل أن يستخف بها ، أو ينسخها ، ويجرى مع الطبيعة ، فجاء سقراط يقول : بل الإنسان روح وعقل يسيطر على الحس ويدبره . والقوانين العادلة صادره عن العقل ومطابقة للطبيعة الحقة وهى صورة من قوانين غير مكتوبة رسمها الألـه فى قلوب البشر فمن يحترم القوانين العادلة يحترم العقل والنظام الألـهى

وقد يحتال البعض فى مخالفتها بحيث لاينالـه أذى فى هذه الدنيا ، ولـكنه مأخوذ بالقصاص العدل لا محالة فى الحياة المقبلة [2]

---

(١) فيلسوف رومانى ولد فى سنة ١٠٦ ق . م وتوفى فى سنة ٤٣ ق . م درس الفلسفة فى « أثينا » وكان مذهبه فى الفلسفة يقوم على احتمال المشقات واقتحام الأخطار والصبر فى الحزن والآلام حتى الموت .

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم ص ٦٧ ، ٦٨

وإذا كانت الفلسفة قد اتخذت لنفسها هذه الموضوعات المتقدمة أو هي بعبارة أخرى تنقسم باعتبار موضوعها إلى هذه الأقسام الثلاثة — فلسفة ما وراء الطبيعة ، والفلسفة الطبيعية ، والفلسفة الإنسانية — فأنها باعتبار الغاية منها تنقسم إلى قسمين اثنين فقط : —

١ — فلسفة نظرية غايتها الحق .

٢ — وفلسفة عملية غايتها الخير .

وكانت الفلسفة قديماً تشمل جميع المعارف الإنسانية فكانت كل العلوم من ألفها إلى يائها تدخل فى دائرة الفلسفة ، واستمر الأمر على هذا النحو حتى استقل العلم عن الفلسفة فى القرن الثامن عشر ، وإن كان العلماء قد نزعوا إلى فصله ابتداء من القرن السابع عشر .

وأول من استخدم كلمة علم بمعناها التجريبى الراهن أكاديمية العلوم الفرنسية فى فرنسا أنشئت عام (١٦٦٦) . وفى انجلترا المجمع البريطانى لتقدم العلوم أنشىء عام (١٨٣١) [١] .

ولما أخذ العلم يستقل عن الفلسفة نشأت خصومة أو تجددت بين العلماء والفلاسفة ، أو بين العلم والفلسفة ، فقد اعتز العلماء بمنهجهم ، واستخفوا بكل ما لا يتخذ التجربة منهاجا له ، واستخفت الفلسفة بالعلم ، أو استخف الفلاسفة بالعلماء لماديتهم ، ولعجزهم ، أو استخفافهم ببستان الفلسفة ذلك البستان الذى يرتاض فيه العقل ، ونعوا عليهم تقديسهم المُسْرف للمادية والماديات .

---

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل

حتى قال « فولتير[1] » : « إن علم ما بعد الطبيعة بستان يرتاض فيه العقل ، وإنه لألذ من علم الهندسة ، فلا تعاني فيه ما تعانيه فيها من الحساب والقياس بل فيه نحلُم حلماً لذيذاً » .

وبينما نسمع هذا . نسمع « بخنر »[2] يقول :

بينما نرى علم النفس ، والمنطق ، وعلم الجمال ، والأخلاق ، وفلسفة القانون ، وتاريخ الفلسفة تستحق البقاء ، وينبغي أن يدرسها العقل البشرى ، إذ نرى فلسفة ما بعد الطبيعة عملا مستحيلا حتى قال فى مؤلفه المسمى « بجانب قرن يُختضر » : « علم الطبيعة يجب أن يُترك ويُعد من سقط المتاع » .

وكان « كانت [3] » يقول : « إن عقل الإنسان مركب تركيبا يؤسف له ، فأنه مع شغفه بالبحث فى مسائل لا تُدركها حواسنا لم يستطع أن يكشف معمياتها [4] .

وكان « وليم جيمس [5] » يقول : « إن الفيلسوف « الميتافيزيقى » يُشبه

---

(١) (١٦٩٤ – ١٧٧٨) فيلسوف وشاعر فرنسى وله شهرة فائقة فى الادب والروايات التمثيلية ، وكان لكتاباته أثر كبير فى أفكار الاوربيين .

(٢) فيلسوى مادى وطبيب ألمانى (١٨٢٤–١٨٩٩) وهو من اتباع دارون .

٣ — هو « عما نويل كانت » من أشهر فلاسفة الألمان « ١٧٢٤ – ١٨٠٤ » مؤسس فلسفة « النقد » وكان يعيش عيشة منظمة أدق نظام حتى كان أهل قريته يضبطون ساعاتهم على خروجه من بيته .

٤ — مبادى الفلسفة تأليف « ا . س راپو برت » ترجمة الدكتور أحمد أمين .

٥ — فيلسوف أمريكاني ١٨٤٢ – ١٩١ . وله محاضرات قيمة ألقاها فى=

الأعمى الذى يبحث فى حجرة مظلمة عن قطعة سوداء لا وجود لها .

ويقول « بَكْل[1] » فى كتابه « المدنية فى انجلترا » : « إن كل باحث فى علم « ما بعد الطبيعة » إنما يبحث فى أعمال عقله ، ولم يكن من وراء ذلك البحث استكشاف فى أى فرع من فروع العلم » .

ولكن يظهر على الرغم من كل هذا أن المسألة كما يقول « شُوبنهور »[2] حيثما يوجد الناس توجد مسائل ما بعد الطبيعة » .

إذا كنا نفهم من هذا أن العلماء والفلاسفة قد نزلوا ميداناً كلٌّ فيه

= جامعة « أدنبره » وفى جامعة « اكسفورد » وكان يتبع الواقع المحسوس فى كل أبحاثه . ومن كتبه « الرغبة فى الاعتقاد » وكتاب « خلود الإنسانية » وله محاضرات سماها « حديث إلى المعلمين »

١ — هو « هنرى تومس بكل » مؤرخ انكليزى كان فى القرن التاسع عشر ولد فى مدينة « لى » مقاطعة « كنت » وتوفى فى دمشق . وكان أبوه تاجراً غنياً . ونظراً لضعف صحته لم يمض وقتاً طويلا فى المدرسة ، ولم يدخل الجامعة ، ولكن حب القراءة تيقظ عنده فى أيامه الأولى . وكان لديه الوسائل التى تمكنه من القراءة زار مصر فى آخر أيامه ، وكان الحافز له على زيارته للشرق أن يغزى أفكاره من الوجهة الروحية والإنسانية عدا الاستجمام وتحسين الصحة .

٢ — فيلسوف ألمانى ١٧٨٨ - ١٨٦٠ . مؤسس فلسفة التشاؤم كان يرى أن هذا العالم شر ، وأن مافيه من الآلام تفوق مافيه من اللذائذ ، وأن السعادة إنما تكون بالزهد وقمع الشهوات وبالحياة الفكرية ، وأن الشىء الأساسى فينا هو الارادة .

ينتصر لما يهوى ، فلقد انقسم الفلاسفة أنفسهم على بعض حتى سخر منهم من يُسفه أحلام من يبحث فى فلسفة « ما وراء الطبيعة » فكانوا عليها مع العلماء .

وبهذه المناسبة أقول ، أو أروى ما يقولون : إن هذه الفلسفة - ما وراء الطبيعة - لم تنل فى انجلترا حظاً وافراً ، ولم يشتغل بها منهم إلا القليل أشهرهم « بركلى [1] » .

ولعل تسمية « إنجلترا » بأرض الذوق الفطرى نشأت من ها هنا . فيعنون بالذوق الفطرى الذوق الذى يشترك فيه الناس جميعهم ، عاديهم وفيلسوفهم .

وإذا كان العلم قد استقل عن أمه الرءوم الفلسفة فما الفرق بين العلم والفلسفة ؟ وماذا تبقى للفلسفة بعد أن استقل عنها العلم ؟

التفرقة بين مدلول كلمة « علم » ومدلول كلمة « فلسفة » حديثة العهد ، ولم تستقل كل كلمة بمدلول خاص بها إلا حين أخذ العلم يطلب أن يستقل عن الفلسفة ، أو حتى أخذ رواد البحث التجريبى يطالبون بالكشف عن أسرار الطبيعة عن طريق المشاهدة ولما تعذرت المشاهدة اخترعت الآلات والأجهزة التى تكره الطبيعة على أن تكشف أسرارها .

وكان ذلك على أيدى نُخبة ممتازة من أساطين العلماء منهم الفيلسوف الانجليزى « فرنسيس بيكون » (١٥٦١ — ١٦٢٦) فهو الذى وضع أساس

---

(١) هو جورج بركلى (١٦٨٥ — ١٧٥٣) أسقف وفيلسوف انجليزى ذهب إلا أنه لا وجود للمادة وليس إلا العقل والروح .

المنهج التجريبي الحديث فهد بذلك لاستقلال العلم عن الفلسفة ، ويُعد مؤسس الفلسفة التجريبية . ويقول بضرورة تطبيق مبدئه على علم الأخلاق والسياسة ، ويُلح « بيكون » فى طلب الملاحظة ودقة النظر والتجربة ، وأن النتائج يجب أن يتوصل إليها من الاستقراء والعناية بالمعلومات وترتيبها .

وخلاصة القول بعد هذا فى الفرق بين الفلسفة والعلم أن أخص خصائص الفلسفة « التجريد » أى أنها تحاول ما استطاعت ألا تربط الفكرة المعينة بجسم من الأجسام . أما العلم فأنه يلجأ إلى المادة يستعين بها على تصوير ما يريد .

والفلسفة تنظر إلى العالم كله كوحدة مترابطة متماسكة ، والعلم يأخذ جانباً من الكون دون جانب .

والفلسفة لا تسلم بصحة مبدأ ، أو فكرة إلا إذا ثبت لديها ثبوتاً لايدع مجالا للريب والشك [1]

وإذا كان العلم قد ثار فى وجه الفلسفة يريد أن يَرْفُض حمايتها وأن يستقل عنها استقلالا تاما فإن الفلسفة لم تتأخر عن مؤازرته على خدمة القضية المشتركة وهى : قضية العلم بحقيقة الأشياء » .

ولقد تبقى للفلسفة بعد أن استقل عنها العلم ثلاثة ميادين رئيسية هى :

١ — الوجود .

٢ — المعرفة .

٣ — القيم .

---

(١) المصدر السابق .

أما الميدان الأول فيعرض للنظر فى طبيعة الوجود على الإطلاق مجرداً من كل تعيين أو تحديد . فمثلا العلوم الطبيعية تبحث فى الوجود ولكن من حيث هو جسم متغير . والعلوم الرياضية تبحث فى الوجود ولكن من حيث هو كم ، أو مقدار أما البحث فى الوجود من حيث هو وجود على الإطلاق فمن شأن الفلسفة. فهى من هذه الناحية تبحث عن العلة الأولى الموجدة لهذا الكون أو بلغة الدين عن « الله » ، وفى صفات هذا الإله ، وعلاقته بمخلوقاته ، وفيما إذا كان هذا الوجود مادياً صرفاً ، أو روحياً خالصاً . أو مزاجاً منهما . إلى غير ذلك من مباحث هذا الميدان .

وأما نظرية المعرفة ، أو النظر فى مطلق العلم فيقصد به البحث فى أصل المعرفة ، وماهيتها ، وحدودها ، ودرجة اليقين فيها . وتتساءل هل فى وسع العقل البشرى أن يدرك الحقائق ؟

وإذا كان فى وسعه فما حدود هذه المعرفة ؟ أهى احتمالية ترجيحية ، أم أنها تتجاوز مرتبة الإحتمال إلى درجة اليقين ؟ ثم ما هى منابع هذه المعرفة ؟ وما أدواتها ؟ أهى العقل ، أم الحس ، أم الحدس ؟ ثم ما هى هذه المعرفة وحقيقتها ؟ وما علاقة الأشياء المدركه بالقوى التى تدركها ؟ إلى آخر ما يبحثه هذا الميدان .

أما الميدان الثالث ، أو مبحث القيم فيعرض للبحث فى المثل العليا ، أو القيم المطلقة وهى : الحق . والخير . والجمال . من حيث ذاتها لا باعتبارها وسائل إلى تحقيق غايات . فيسأل : هل هى مجرد معان فى العقل تقوم بها الأشياء ؟ أو أن لها وجوداً مستقلا عن العقل الذى يدركها إلى غير هذا

من مباحث يتضمنها علم المنطق ، وعلم الأخلاق ، وعلم الجمال ومن هذه المباحث الثلاثة : الوجود . والمعرفة . والقيم بمختلف فروعها يأتلف موضوع الفلسفة الرئيسى عند جمهرة الفلاسفة (١) .

وإذا كنا قد عرفنا مكانة علم الأخلاق من الفلسفة ، وأنها مكانة الجزء من الكل . ذلك لأن علم الأخلاق جزء من الفلسفة الإنسانية هذه الفلسفة التى هى جزء من محيط الفلسفة بمعناها العام إذا كنا قد عرفنا هذا فمن الحسن أن نعرف شيئاً عن صلة علم الأخلاق بغيره من علوم هذه الفلسفة الإنسانية

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل ومبادىء الفلسفة تأليف « أزفلد كوليه » ترجمة أبو العلا عفيفى .

صلة علم الأخلاق بعلم النفس :

يقول « بارتلمي » سانتهلير فى مقدمه كتاب الأخلاق لأرسطو طاليس ترجمة عميد الفلسفة فى الشرق أستاذنا احمد لطفى السيد : « بدون المشاهدة « السيكولوجية » لا يتحقق علم الأخلاق ، أو يكون علماً تجكيما .

« وتفسير ذلك أن علم النفس يبحث عن جميع القوى التى تلعب أهم الأدوار فى السلوك الإنسانى فهو يبحث مثلا عن الضمير . والارادة ، والذاكرة . والحافظة . والإدراك ، والوهم ، والتأويل ، والفهم إلى غير ذلك مما فى الانسان من إحساسات ، وعواطف ، وانفعالات . وكل هذه أفعال نفسية ، أو هى أفعال عقلية تحرك الإنسان لأن يقول ، أو يعمل على مسرح هذه الحياة ، ولما كان علم الأخلاق يتخذ لنفسه موضوعا هو أفعال الإنسان العاقل الحر المختار كما قد عرفت فى موضوعه ماكان لنا أن نحكم على إنسان حكما أخلاقيا من غير أن نُدخل هذه الأشياء فى اعتبارنا . وإلا كان ذلك منا تحكما لا يقبله عقل .

فعلم النفس إذن مقدمة ضرورية لابد منها لدارس علم الأخلاق ، ولذلك ترى من تكلموا ، أو ألفوا فى الأخلاق تراهم يقدمون لذلك بالكلام فى النفس فترى الغزالى مثلا يؤلف كتابه « معارج القدس فى مدارج معرفة النفس » يقدمه لطلاب الأخلاق .

ونرى كذلك « أرسطو » يؤلف كتاب النفس وهو كتاب نقله إلى العربية اسحاق بن حنين (١) .

---

(١) تصدير أستاذنا احمد لطفى السيد لكتاب الأخلاق لأرسطو طاليس

والشيخ الرئيس ابن سينا فى رسالته : « تقسيم الحكمة » يعد العلم بالنفس الإنسانية من الفلسفة النظرية . والأخلاق كما تقدم منها قسم نظرى وقسم عملى على أنه إذا كانت قوانين الأخلاق قد وضعت ليكيف الإنسان سلوكه على مقتضاها فكيف يتم ذلك من غير أن يُعرف الإنسان نفسه « ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

نعم نسمع مثل « كنت » وهو أكبر أخلاقى فى الأزمان الأخيره يرفض أن يعتمد علم الأخلاق على علم النفس : وحُجته فى ذلك أن علم النفس علم يعتمد على التجربة ، والتجربة قد تُثبت اليوم غير ما أثبت بالأمس ، ومبادىء الأخلاق ثابتة صالحة لكل زمان ومكان ، فهى لا تكون اليوم غيرها بالأمس كما هى الحال فى مثل العلوم التجريبية .

وإذا كان « كنت » يرفض أن يعتمد علم الأخلاق على علم النفس التجريبى « أو العلمى » فأنه ـ لا هو ولا غيره ـ يرفض الصلة بين علم الأخلاق وعلم النفس الفلسفى : ذلك الذى يدرس الأسس المنطقية التى يعتمد عليها علم النفس التجريبى .

مثلا . يقصد علم النفس التجريبى إلى الوصول إلى مقياس خارجى تقاس به الظواهر النفسية . أما معنى قياس هذه الظواهر النفسية ، ثم معنى طرق التحليل والتركيب فيها فذلك وظيفة علم النفس الفلسفى . ومعنى ذلك أن علم النفس الفلسفى يبحث فى الفروض والمبادىء التى يستند إليها علم النفس العلمى .

وعلى أن علم النفس يلتقى بعلم الأخلاق من ناحية أن كلا منهما يبحث الأنسان من ناحيته النفسية : علم الأخلاق من ناحية ما يجب أن يكون عليه الإنسان ، وعلم النفس من ناحية ماهو عليه بالفعل .

صلة الأخلاق بالمنطق :

أولا نتساءل

هل علم المنطق من العلوم المعيارية ؟ يعنى أن مهمته أن يضع القواعد والقوانين التى يجب أن يفكر الإنسان على مقتضاها ليعصم ذهنه من الخطأ فى التفكير .

أو هل هو من العلوم الوصفية ؟ أى أن مهمته أن يصف التفكير العلمى على ما هو عليه .

إن قلنا : إنه من العلوم المعيارية فهو قوى الصلة بعلم الأخلاق يتصل به من ناحيتين اثنتين : —

الأولى : أنه وعلم الأخلاق من العلوم المعيارية : علم الأخلاق يضع القوانين التى يكيف الإنسان سلوكه ، أو ينبغى أن يكيف سلوكه على مقتضاها . وعلم المنطق يضع القوانين التى ينبغى أن يفكر الإنسان على منوالها .

الثانية : أن كلا منهما يبحث فى الإنسان من الناحية النفسية . كل من جهة : هذا من ناحية سلوكه . وهذا من ناحية تفكيره .

وإن قلنا : إن علم المنطق من العلوم الوصفية ، فهو يتصل بالأخلاق من هذه الناحية الثانية ، وكفى بها صلة ونسباً .

لكن . هل يتصل المنطق بالأخلاق من تلك الناحية الحية - إن صحت هذه التسمية - وهى أن التفكير المنطقى يخلق منك رجلا على سلوك طيب بالفعل ؟ .

واقع الأمر على مسرح هذه الحياة أنك قد تكون أقرب الناس

إلى التفكير المنطق ، أو أعلمهم فى هذه الناحية وأبعدهم عن سلوك الأخيار .

وإذا كان المنطق أكثر العلوم الفلسفية نضجا وتقدماً ، وأنه العلم الذى يبحث فى التفكير الصحيح الذى يأتى مطابقاً لمبادىء العقل البديهية . إذا كان ذلك كذلك فهل لى أن أطمع فى أن أرى طلاب المنطق أقرب الناس إلى سلوك يدل على أنهم يفكرون تفكيراً منطقيا ؟ !!!

وإذا كان المنطق مفتاح الفلسفة على معنى أن الذى لا يعرف المنطق لا يعرف الفلسفة ، فأنى أضم إلى ذلك أن الذى يفكر التفكير المنطق ، ولا يظهر ذلك على سلوكه بالفعل فليس من المنطق فى شىء .

الصلة بين علم الأخلاق وعلم الجمال :

علم الأخلاق ، وعلم الجمال أولا دعم على معنى أنهما يجمعهما نسب واحد ، وهو أن كلا منهما يتخذ لنفسه هدفا هو الإنسان : فعلم الأخلاق يبحث فى الإنسان من ناحية ما يجب أن يكون عليه فى سلوكه الخاص والعام وعلم الجمال يبحث فى الإنسان من ناحية اللذائذ التى تبعثها مناظر الأشياء الجميلة فى الإنسان .

فأنت حينما ترى النجوم التى لا عداد لها سابحة فى الفضاء ، منثورة نثر الرمال فى الصحراء ، أو حينما ترى شروق الشمس ، أو غروبها على سطح المـــاء . أو ترى وردة تُشرق على الحشائش ، والأعشـاب ، حينما ترى هذا ، أو ما يُشبه هذا تشعر بسرور يشرح صدرك ، وقوة تجرى فى أوصالك ، واطمئنان يغمر جوانب نفسك التى كانت من قبل حائرة « قلقة » مضطربة .

وهذا هو ما دعا المسيو « ليج »[1] إلى أن يقول :

لا شىء يشد العزائم ، ويقوى الهمم ، ويهذب الطبع ، وينقى النفس مثل النظر الصحيح إلى مظاهر الطبيعة ، والتأمل فى دقائق التحف الفنية ، والطرف الأثرية ، إذ ينبعث منها ما يُشعر بالعظمة ، والقدرة التى تباعد بين الإنسان وبين الغرائز السافلة ، وتثير فى صدره الطموح إلى المعالى ، والنزوع إلى الكمال » .

---

(١) كان وزيرا للمعارف الفرنسية فى أوائل هذا القرن تقريبا .

وهو الذى دعا أيضا « دارون »[1] إلى أن يقول :

إن عدم العمل على تذوق الحسن ، وإهمال تربية عاطفة الجمال لهو لفقدان السعادة ذاتها ، على أن ذلك الإهمال يُخمِد شعلة الذكاء ، ويضر ضرراً بليغاً بالأخلاق »[2]

نعم إن إهمال تذوق الجمال يَضُر ضرراً بليغاً بالأخلاق ، فالذى لا يذوق طعم الجمال يَنْدُر أن يذوق طعم الفضيلة .

ومن هنا نفهم السر فى أن القرآن الكريم يجعل « التأمل » فى الكون من « التقوى » فيقول : « إنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ ، ومَا خَلَقَ اللهُ فى السمواتِ والأرض لآياتٍ لقوم يَتَّقُون[3] »

بل إنه ليجعل « التأمل » من أقوى أسباب « الإيمان » فيقول :

---

١ — هو « شارلز روبرت دارون » أكبر عالم طبيعى جاد به القرن التاسع عشر ولد فى سنة ١٨٠٩ — وتوفى فى سنة ١٨٨٢ . وضع النظريات الحديثة التى بنى عليها العلماء مبادئهم فى علوم الاجتماع ، والنفس ، والحيوان ، والنبات . . وكشف عن سنن النشوء ، وأصل الأنواع . وكان يقول : بأن التعليم النظامى لا يؤثر فى عقل الإنسان وملكاته إلا تأثيراً عرضياً وان الصفات التى يتصف بها المرء فطرية موروثة وأن تأثير التهذيب الكسبي فيها قليل . وكان مقتنعاً بأن نجاحه العلمى ينحصر فى حبه الفطرى للعلوم الطبيعية ، وصبره ، وطول أناته ، ونظره نظر التأمل فى كل موضوع يلقى إليه .

٢ — من كتاب «فى التربية والتعليم» لأستاذنا الجليل أحمد فهمى العمروسى .

(٣) سورة « يونس » آية « ٦ » .

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

وإذا كان القرآن الكريم يلفتك إلى ما فى هذا الكون من جمال ، وما فى مشاهد الطبيعة من آيات بينات ، فليس لذلك من معنى إلا أنه يريد أن يشعرك بما لخالق هذا الكون من « قدرة » .

وهل هناك من باعث يبعثك إلى الخير أكثر من هذا ؟ ! ! !

إن من يقرأ فى القصص اليونانية القديمة قصة « بوتاد » وابنته عن نشأة الرسم والحاجة لاختراعه ليعلم قوة الصلة بين الأخلاق والجمال ، وها هى ذى القصة تريك أن أساس الفن الجميل « الحب » .

كان لـ « بوتاد » اليونانى ابنة عزيزة عليه ، قد شغفت حباً بشاب من قومها ، وبعد فترة من الزمن اضطر إلى السفر ، فشق على الفتاة غياب حبيبها عنها ، فأخذت تفكر فيما تصنع ، وتحتال فى الوصول إلى ما يحفظ صورته لديها للائتناس بها مدة غيابه ، فرأته يوما نائماً ، وظلّ وجهه ساقط على جدار قريب منه ، فنهضت ، وخططت هذا الظل على الجدار ، ولما جاء أبوها أعجب بهذه الفكرة ، ورأى أن يجعله بارزاً ففعل .

فكان « بوتاد » وابنته أول من اخترع الرسم العادى والبارز .

وإذا كانت المشاهدة ، وإنعام النظر فى صفحة هذا الكون ، وإدراك

---

١ — سورة الأنعام » آية « ٩٩ » .

ما فيها من أسرار ، وجمال هى الدعامة الكبرى التى يقوم عليها صرح التربية والتعليم الآن فان القرآن الكريم يجعل هذه المشاهدة من « التقوى » ومن أقوى أسباب « الإيمان » ليرسى هذه « الدعامة » من قبل أن يقوم صرح « التربية والتعليم » على الأسس النفسية .

وإذا كان الآباء القساة فى الجاهليه كانوا يقتلون أولادهم قتلا حقيقياً : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ » فإنا نقتل أولادنا قتلا معنوياً إذا نحن لم نُعودهم على أن يقرأوا فى كتاب الكون ، أو إذا نحن لم نربط أخلاقهم بما فى الكون من جمال .

ومن الكلمات المأثورة فى هذا الباب لأستاذنا الجليل احمد لطفى السيد له : « أحبوا الجمال تحبوا الحياة » .

وإنه ليشرح هذه الكلمة فيقول مما يقول : « غرض الموسيقى يتناول تنبيه كل خاطر من خواطرك ، وإنماء كل عاطفة من العواطف : يتناول إنماء الأنفه والعزة ، ويتناول إنماء عاطفة الرحمة عند القوة ، والعفو عند المقدرة .

نعم . فللأخلاق أبواب يدخُل منها من يشاء إلى ما يشاء ، والجمال باب من هذه الأبواب ، بل هو أهم باب فى هذه الأبواب . يُولد المحبة ، أوهو مدخل إلى المحبة ، وسبب يتوصل به نحوها فالأعضاء الحساسه مسالك إلى النفوس ، ومؤديات نحوها .

وليست الحواس وحدها تكفى فى إدراك الجمال ، بل لابد معها من العقل ، فالحواس وحدها تستطيع أن تدرك الحركات ، والأشكال ،

والأصوات ، والألوان على انفرادها ، ولكن لابد معها من الفكر ، والشعور ليربطها بعضها ببعض ، ويُكوّنا منها مجموعة واحدة متناسقة الأجزاء . وبهذا أيضا يختلف الإنسان عن الحيوان . فالحيوان يستطيع أن يدرك ألوان الصور ، ولكن لا يدرك ما يدل عليه ذلك من عواطف .

هذا هو السر فى أنك ترى إنساناً يدرك الجمال بسرعة ، ويفهمه فى الطبيعة والصناعة ، وفى تناسق الأصوات والصور ، على حين أنك ترى الآخر لا يأبه لكل هذا .

والقوة التى بها نُميز الجمال ، ونُقومه هى التى نسميها بالذوق ، وهى ملكة فى الإنسان بها يشعر بلذة الجمال . مُنحها الناس على تفاوت فيما بينهم . فيها التهذيب ، والمدنية فى الفرد والمجتمع إلى درجات متفاوتة .

لكن . بماذا تقوى ملكة الذوق وبماذا تَضعف ؟

يقول « نيتشه » : « كل ما كان قبيحاً يُضعف الإنسان ويقبض صدره إذ يذكره بالانحطاط والخطر والوهن » .

ويقول الأستاذ « راپوپرت » صاحب كتاب « مبادىء الفلسفة » الذى ترجمه من الإنجليزية إلى العربية الدكتور أحمد أمين يقول : إن الجميل ترتاح له النفس ، وينشرح له الصدر أما القبيح فينشأ عنه شعور بألم أو نفور » .

ويقول أستاذنا أحمد لطفى السيد : « يجب صرف الطفل من صغره إلى تعلم « الجمال » وذلك بأن يلفت الأستاذ نظره دائماً إلى جمال الطبيعة الحسية ، فإن ذلك يوحى إلى نفسه أن تتعلق بحب الجمال ، فإذا نمت هذه الملكة - ملكة حب الجمال - نمت معها ملكة التمييز بين الجميل وغير الجميل . ملكة

التفريق والتفضيل . ملكة الذوق السليم . كما يجب على الأم أن تعلم ابنها وابنتها الجمال . وتنمى فيهم عادة حب الأزهار . . . ثم يقول : إننا إذا ربينا فى أبنائنا ملكة الذوق فى المحسوسات أو شكنا أن نكسب من غير عناء ترقية ملكة الذوق فى المعنويات ، وحصلنا على قسم كبير من المشابهات بين الأفراد ، فعلى المشابهات ينبنى « التضامن » وعلى التضامن تنبنى قوة الرأى العام . وعلى قوة الرأى العام يتوقف كل نجاح اجتماعى وسياسى[1].

وإذا كانت النفس تضعف برؤية الشىء « القبيح » وتقوى بمشاهدة جمال الطبيعة ، وبحب الأزهار ، فإنها لتقوى أيضاً بكثرة الالتفات لما يقع منها ومحاسبتها عليه .

إن كثرة الالتفات لما يقع من النفس ، ومحاسبتها عليه مدخل إلى « الذوق السليم » وفيه « جمال خُلقِى » ترتاح النفس إليه .

إن الجمال والحب مثلهما كمثل الضفتين للنهر الواحد ، فإذا وقفت على إحدى الضفتين رأيت الأخرى ، والشرق كما يقول أستاذنا « أحمد أمين » « ينقصه الحب » : حب الوطن ، وحب النظام ، والنظافة ، والعمل . وحب كل شىء على وجه العموم .

« وبعد » فإنا فى حاجة ماسة إلى مجتمع يذوق أفراده طعم ما يقع حواليهم من حوادث لا كما يذوق المحموم طعم الطعام ، بل كما يذوقها السليم ولا سبيل إلى ذلك إلا بلفتهم إلى الجمال يدركونه ، ويتذوقونه ، ويعشقونه .

---

(١) النتجات ح « ١ » ص « ٦٠ » .

وإنى بمناسبة الكلام على صلة الأخلاق بعلم الجمال ، ودعوة القارىء إلى « التأمل » هذا الذى يدعو إليه الإسلام بأن جعله مرة من « التقوى » ومرة من أسباب « الإيمان » إلى آخر ما ورد فى القرآن الكريم بشأنه .

هذا التأمل الذى يجعل فضيلته أحد أساتذة الأخلاق الأكرمين « أرسطوطاليس » . أرقى من الفضيلة الأخلاقية . بهذه المناسبة أقدم للقارىء قصيدة فى باب « التأمل » للشاعر الفحل « معروف الرصافى » فإنها « مدخل » يوصلك إلى أن تقرأ كتاب الكون ، وفيها فوق ذلك عبرة وعظة ، وفيها راحة ، واطمئنان ، وفيها جمال وجلال يمهد لك الطريق إلى هذه « العبادة » عبادة التأمل والتفكير .

ورحم الله « أبا الدرداء » ذلك العارف المتفكر ، فقد سئلت عنه أم الدرداء . ما كان أفضل عمله ؟ فقالت : « التفكر والاعتبار » .

وها هى ذى القصيدة :

العالم شعر

مشاهد من الطبيعة والمجتمع

قرأتُ ، وما غيرُ الطبيعة من سِفرِ
صحائفَ تحوى كلَّ فنٍّ من الشعرِ [1]
أرى غُرَرَ الأشعار تبدو نَضيدةً
على صفحات الكونِ سطراً على سطرِ [2]

(١) السفر : الكتاب .
(٢) نضيدة : منسقة .

وما حادثاتُ الدهر إلا قصائدٌ
يفوهُ بها للسامعين فَمُ الدهر
وما المرء إلا بيت شعرٍ عَروضُه
مصائبُ ، لكنْ ضَربُه حُفرةُ القبرِ (١)
تُنظِّمنا الأيامُ شعراً ، وإنما
تردّ المنايا ما نَظَمن إلى النثر (٢)
فنا طويلٌ مُسهَبٌ بحرُ عُمره ،
ومنّا قصيرُ البحر مُختصَر العُمر (٣)
وهذا مديحٌ صِيغَ من أطيبِ الثناء ،
وذاك هِجاءٌ صِيغ من مَنطِقٍ هُجْر (٤)

* * *

وربَّ نِيامٍ فى المقابر زُرتُهم
بمُنهلٍّ دمعٍ لا يُنَهنَه بالزّجر (٥)

---

(١) العروض فى علم الشعر : الجزء الاخير من الشطر الأول من البيت ، والضرب : الجزء الاخير من الشطر الثانى ، والمعنى أن الانسان أوله للمصائب وآخره للموت .
(٢) النثر : التفريق
(٣) مسهب طويل .
(٤) الهجر : القبيح من الكلام .
(٥) لا ينهنه : لا يكف .

وقفتُ على الأجداثِ وقفةَ عاشق
على الدارِ، يدعو دارسَ الطلل القَفْر (١)
فما سال فيض الدمع حتى قرَنتُه
إلى زفرَاتٍ قد تصاعَدنَ من صدرى
أسُكّان بطنِ الأرضِ، هلاّ ذكرتُمُ
عهوداً مضت منكم، وأنتم على الظّهر!
رضيتم بأكفانِ البِلى حُللاً لكم،
وكنتم أولى الديباج والحُلَلِ الحُمر
وقد كنتمُ تؤذِى الحشايا جُنوبَكمْ،
فكيف رقَدتم، والجُنوبُ على العَفْر؟ (٢)
ألا يا قُبوراً زرتُها غيرَ عارفٍ
بها ساكِنَ الصحراء من ساكنِ القصر
لقد حارَ فكرى فى ذويكِ، وإنّه
لَيَحتارُ فى مثوى ذويكِ أولوا الفكر (٣)
فقلت، وللأجداثِ كَفّى مشيرةٌ:
ألا إن هذا الشعر من أفجع الشعر (٤)

---

(١) الأجداث: القبور. درس المكان: انمحى. الطلل: ما بقى من آثار الديار.
(٢) الحشايا: جمع حشية، وهى الفراش المحشو. العفر: التراب.
(٣) المثوى: المقام.
(٤) أفجع: أوجع.

وليلٍ غُدافيّ الجناحين بتّهُ
أسامر فى ظلمائه واقعَ النَّسر (١)
وأقلعُ من سُفنِ الجبال مَراسياً ،
فتجرى من الظلماء فى لُجَجٍ خُضْر (٢)
أرى القبّة الزرقاء فوقى كأنها
رِواق من الدّيباج رُصّع بالدُّرّ (٣)
ولولا خُروقٌ فى الدّجى من نجومه ،
قبضتُ على الظلماءِ بالأنمل العشر
خليليّ ، ما أبهى وأبهجَ فى الرُّؤَى
نجوماً بأجوازِ الدّجى لم تزَلْ تَسرى (٤)
إذا ما نجوم الغَرب ليلاً تغوّرت ،
بدت أنجُمٌ فى الشرق أُخرى على الإثر (٥)
تجوّلتُ ، من حُسن الكواكب فى الدجى ،
وقُبحِ ظلام الليل ، فى العُرف والنُّكر (٦)

---

(١) غداف الجناحين : أسودها . النسر : اسم لنجمين ، إحداهما يقال له النسر الواقع ، والآخر يقال له النسر الطائر .
(٢) خضر : سود ، يقال أخضر بمعنى أسود .
(٣) الرواق : سقف فى مقدم البيت .
(٤) الرؤى : جمع رؤية . أجواز الدجى : أوساط الليل .
(٥) تغورت : غابت .
(٦) تجولت : كذا فى الاصل ، ولم تذكر المعاجم هذه الصيغة .

إلى أن رأيتُ اللّيل ولّت جنودُه
على الدّهم يَقفُوا إثرَها الصبحُ بالشُقر[1]

فيا لك من ليلٍ قرأتُ بوجهه
نظيمَ البَها فى نَثرِ أنجُمه الزّهر

فقلتُ ، وطرَفى شاخصٌ لنجومه :
ألا إنّ هذا الشعر من أحسن الشعر !

* * *

ويومٍ به استيقظتُ من هجعةِ الكَرَى
وقد قدّ درعَ الليل صمصامة الفجر[2]

فأطربنى ، والدّيك مُشجٍ صياحُه ،
ترنّمُ عصفورٍ يزقزقُ فى وكر

ومما ازدهى نفسى وزاد ارتياحَها
هبوبُ نسيمٍ سَجسَجٍ طيّب النّشر[3]

---

(١) الدهم : أى للخيول الدهم . يقفوا إثرها : يتبعها . الشقر : أى الخيول الشقر والمراد : الظلمات وأشعة الشمس .

(٢) الهجعة : النومة . الكرى : النعاس . درع الليل : أى ظلمته . الصمصامة : السيف . والمراد بصمصامة الفجر : ضياؤه .

(٣) ازدهى نفسى : استفزها . ريح سجسج : لينة الهواء . النشر : الهواء .

فقمت ، وقام الناسُ كلّ لشأنِه ،
كأنّا حَجيجُ البيتِ فى ساعة النفر [1]

وقد طلعتْ شمسُ النهار ، كأنها
مَليكٌ من الأضواءِ فى عسكرٍ مَجْر [2]

بدت من وراء الأفقِ ترفُل للعُلى ،
رُويداً رُويداً فى غلائلها الحمر [3]

غدت تُرسل الأنوارَ ، حتى كأنها
نُسَيل على وجه الثرى ذائبَ التِّبر [4]

إلى أن جَلتْ فى نورها رونقَ الضحى
صقيلا ، وفى بحر الفضاء غدت تجرى

وأهدت حياةً فى الشّعاع جديدةً
إلى حيوانِ الأرضِ والنَّبتِ والزهر

فقلت ، مشيراً نحوها بحفاوةٍ :
ألا إنّ هذا الشعر من أبدعِ الشعر !

---

(١) الحجيج : الحجاج . البيت : أى البيت الحرام فى مكة . النفر : اندفاع الحجاج من منى إلى مكة .
(٢) المجر : الجيش العظيم .
(٣) ترفل : تجر ذيلها وتتبختر . غلائلها : جمع غلالة ، وهى شعار يلبس تحت الثوب .
(٤) التبر : الذهب .

ومائدةٍ نَسْجُ الدَّمَقسِ غِطاؤها ،
بمجلِس شبّانٍ هُم أنجـــمُ العصر (١)
رقَى من أعاليها الفُنُغراف مِنبَراً
مُحاطاً بأصحابِ غطارفةٍ غُرّ (٢)
وفى وسَط النـادى سِراجٌ منوّرٌ ،
فتحسبَه بدراً وهم هـالة البدر (٣)
فراح بأذن العـــلمِ يُنطِق مِقولاً ،
عرفنا به أنَّ البيانَ من السحر
فطوراً خطيباً يُحزِنُ القلبَ وعظُه ،
وطوراً يَسُرّ السمعَ بالعَزف والزمر
يفوه فصيحاً باللُّغـا ، وهو أبكم ،
ويُسمِع ألحـان الغنا ، وهو ذو وَقْر (٤)
أمينٌ أبى التدليسَ فى القول حاكياً ،
فتسمعه يروى الحديثَ كما يجرى (٥)

---

(١) الدمقس : الديباج والحرير الأبيض .
(٢) رقى : لغة فى رقى . الغطارفة : السادة .
(٣) الهالة : دارة القمر .
(٤) اللغا : اللغات ، وهى جمع لغة . الوقر : الصمم .
(٥) التدليس فى الحديث : هو أن لا يذكر المحدث فى حديثه من سمعه منه ، ويذكر من هو أعلى ممن حدثه ، ليوهم أنه سمعه منه ، والمدلس لا يقبل حديثه .

تراه ، إذا لقّنتَهُ القولَ ، حافظاً ،
تمرّ الليـــالى وهو منه على ذُكر (١)
فيالك من صُنعٍ به كلّ عاقلٍ
أقرّ لأديسونَ بالفضلِ والفخر (٢)
فقلت ، وقد تمت شقاشقُ هَدْرِه :
ألا إنّ هذا الشِّعرَ من أعجبِ الشّعر ! (٣)

* * *

وأضيدَ مأثورِ المكارِم فى الورَى ،
يُريك ، إذا يلقاكَ ، وجهَ فتىً حُرّ (٤)
يروح ويغدو فى طيالسة الغنى ،
وتقضى حقوق المجد من ماله الوَفْر (٥)
تخوّنه رَيبُ الزمان فأولعَتْ
بإخلاقِها دِيباجَتَيه يدُ الفقر (٦)

---

(١) الذكر : التذكر .
(٢) أديسون : مخترع « الفنغراف » .
(٣) تمت شقاشق هدره : أى سكت .
(٤) الأصيد : الذى به زهو وخيلاء .
(٥) طيالسة : جمع طيلسان ، وهو نوع من النبات .
(٦) الاخلاق : مصدر اخلق الثوب : ابلاه . ديباجتيه : خديه

فأصبح فى طُرُقِ التَّصعلُكِ حائراً ،
يجول من الإملاقِ فى سَمَلِ طِمْر [1]
كأنْ لم يَرُح فى موكِب العزّ راكباً
عِتاقَ المذاكِى مالكَ النَّهى والأمر [2]
ولم تزدحِمْ صِيدُ الرجال ببابه ،
ولم يَغمُرِ العافِين بالنائلِ الغَمْر [3]
فظلّ كئيبَ النفسِ ينظر للغنى
بعينِ مُقِلّ كان فى عِيشة المُثرى
إلى أن قضى فى عِلة للعُدمِ نَحْبه ،
فجَهَّزهُ من مالهم طالبُوا الأجر [4]
فرُحتُ ، ولم يُحفَل بتشييع نعشه ،
أشيِّعه فى حامِليه إلى القبر
وقلت ، وأيدى الناس تَحثُو تُرابَه :
ألا إن هذا الشّعر من أفجعِ الشعر [5]

---

(١) التصعلك : الافتقار . الاملاق : الفقر . سمل طمر : ثوب بال .
(٢) المذاكى : الخيل التى تم سنها وكملت قوتها .
(٣) العافين : طالبى المعروف من ذوى الحاجة . النائل الغمر . العطاء الكثير .
(٤) العدم : الفقر .
(٥) تحثو ترابه : تصبه .

ونائحةٍ تبكى الغَداةَ وحيدَها
بشجوٍ ، وقد نالته ظلماً يدُ القهر
عزاه إلى إحدى الجنايات حاكِمٌ
عليه قضى بُطلاً بها ، وهو لا يدرى (١)
فويلٌ له من حاكمٍ صُبَّ قلبُه
من الجَوْر مطبوعاً على قالَب الغدر
من الرّوم ، أمَّا وَجهُه فمشوَّه
وَقاحٌ ، وأمَّا قلبُه فمن الصخر
أضرَّ بعَفّ الذَّيلِ ، حتى أمضَّه ،
ولم يلتفِتْ منه إلى واضح العُذر
تَخطَّفهُ فى مَخلبِ الجَور غِيلة ،
فزَجَّ به من مُظلِم السّجن فى القَعر
تنوءُ به الأقيادُ إن رام نَهضةً ،
فيشكو الأذى ، والدمعُ من عينه يجرى (٢)
تناديه ، والسَّجّانُ يُكثِرُ زَجرها ،
عجوزٌ له من خلف عاليةِ الجُدر : (٣)

---

(١) عزاه : نسبه .
(٢) تنوء به : تثقله . الأقياد : جمع قيد .
(٣) الجدر : جمع جدار .

بُنيَّ ، أظُنُّ السّجنَ مَسَّكَ ضُرُّه ،
بُنيَّ ، بنفسي ما أصابَك من ضرا

بُنيَّ ، استعِنْ بالصبر ، ما أنتَ جانياً ،
وهل يَخذُلُ اللهُ البريءَ من الوِزْر ؟ (١)

فجئتُ أعاطيهـــا العَزاء ، وأدمُعي
كأدمُعها تَنهلّ مني على النَّحر

وقلت ، وقد جاشتْ غوارِبُ عَبرتي :
ألا إنَّ هذا الشّعرَ من أقتلِ الشّعر (٢)

ألست ترى أن هذه القصيدة مفتاح « التأمل » .

وما دمنا قد تكلمنا عن تقويم الأخلاق عن طريق العناية بالرياضة « التأملية » ، و « الحديث ذو شجون » .

فلنردفها بكلمة عن تقويم الأخلاق عن طريق العناية بالرياضة البدنية

---

(١) الوزر : الذنب .
(٢) جاشت : فاضت . غوارب الماء : أعاليه . العبرة : الدمعة .

وظيفة الرياضة فى الحياه العامة .

الرياضة فى نظر الإسلام .

كيف تستفيد منها الأخلاق .

المثل الأعلى للفرد إنسان قوى : فى خلقه ، قوى فى علمه ، قوى فى جسمه .

ويجب أن تكون هذه القوى الثلاث منسجمة مع بعضها أى أن « تسير متوازية » بحيث لا تطغى منها قوة على أخرى .

والاسلام يدعو إلى أن يُكمل كلٌّ نفسه من هذه النَّواحى جميعها يدعو إلى العلم بقوله سبحانه وتعالى : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » وبقوله : « وَيَرْفَعَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات » و : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُون » و : « إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء » .

ويدعو إلى الخلق العظيم بقوله : « وَإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم » وبقوله « الْخُلق وعاء الدين » و : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ويدعو صلوات الله عليه إلى الرياضة البدنية فيروى البخارى أن

رسول الله مَرّ على نفر من بنى أسلم ينتضلون ـ أى يترامون بالقسى للسبق والنضال ـ فأقبل عليهم قائلا : ارموا بنى اسماعيل فأن أباكم كان راميا . ارموا وأنا مع بنى فلان فأمسك الفريق الآخر عن الرمى فقال لهم : ما لكم لا ترمون ؟

فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ !! فقال : ارموا فأنا معكم كلكم . وفى هذا حث وتشجيع على الرياضة .

وأخرج مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال : « من تَعَلَّم الرمىَ ثم تركه فليس منا ، أو قد عصى »

وقال : « أرمُوا واركبو . وأن ترموا أحبّ إلى من أن تركبوا ، كل لهو باطل . ليس من اللهو محمودٌ إلا ثلاثٌ : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميُه بقوسه ونَبله ، فأنهن من الحق ، ومن ترك الرمَى بعد ما علمه رغبة عنه ، فأنها نعمة تركها ، أو قال كفرها .

ويَروى ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلوات الله عليه سبّق بين الخيل ، وفضّل القُرّح فى الغاية .

وبلغ من عنايته بهذا النوع من الرياضة ان وضع له نظاماً فجعل له أمَدا معلوما ، وأن تكون الخيل فيه متساوية الأحوال .

فأرسل الخيل المضمرة ـ أى المجوعة ـ أرسلها من الحَفْياء إلى ثنية الوداع على مسافة ستة أميال تقريبا .

وأرسل التى لم تضمر من ثنية الوداع إلى مسجد بنى زريق ، وأمدها ميل أو نحوه . ولم يكن السبق قاصراً على الخيل وحدها فقد رُوى عن

أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا سبَق إلا فى خُفٍّ ، أو حَافرٍ أو نصْل ـ المراد بالخف « الأبل » وبالحافر « الخيل » وبالنصل « السهم » والسبَق بفتح الباء الجُعْل ؛ وباسكانها مصدر سبقت أسبق سَبْقا .

ولست فى حاجة إلى القول بأن ذلك السباق الذى شجعه النبى ، وأقيم فى عهده كان سباقا رياضياً لم يدخله قمار كذلك الذى تراه اليوم . وإذا كان النبى صلوات الله عليه يدعو إلى الرياضة البدنية فذلك لأنها تخلق من الفرد إنساناً قوى الجسم ، مفتول العضل ، مهذب المشى ، والحركة . وتخلق منه أيضاً ، أو من شأنها أن تخلق منه أيضاً إنسانا يدرك معنى التعاون والاعتماد على النفس ، ويذوق طعم الهمة ، والنشاط ، والنظام ، ويتمتع بحسن المنظر ، ويعرف كيف يحكم بين الناس بالقسط . ونجعل منه إنسانا مرحا لاتيئسه الهزيمة ، ولا يطغيه الظفر ، بل يتقدم إلى الفائز يصافحه مهنئاً .

وإذا كنا ندعو إلى ذيوع الروح العلمى ، والأخلاقى ، فأنا فى حاجة ماسة إلى الروح الرياضى فى البلاد . فالرياضى الحق هو الذى يعرف كيف يبتسم حين يتعمد خصمه أن يخرجه عن طوره ، والرياضى الحق هو الذى يتخذ التعاون سبيلا للنجاح ، والرياضى الحق هو الذى ينكر ذاته ، وإذا أهاب به الداعى تقدم ملبياً النداء .

إن الأمم التى قطعت شوطاً بعيداً فى الحضارة والمدنية قد مهدت لذلك بالإكثار من الأندية الرياضية لتيسير الرياضة للشباب ، فالشاب الذى يصرف أوقات فراغه فى مقهى ، أو فى غيره من الأمكنة التى لا تعود عليه بنفع يجد أمامه مجالا فسيحاً ميسراً فيها لمزاولة ماتهوى إليه نفسه .

وفى كثير من تكاليف الإسلام حركات رياضية تراها فى الصلاة وفى بعض أعمال الحج .

فهل لى أن أدعو إلى الرياضة البدنية فنعنى بها كما نعنى بدور العلم والمستشفيات ؟

ومصر وإن كانت قد خطت فى سبيل الرياضة البدنية خطوات مباركات إلا أن أملى مع ذلك أن أرى الأندية الرياضية يفتحها الأزهر لطلابه وأساتذته ، أو أرى أساتذة الأزهر وطلابه يفتحون الأندية الرياضية يمارسون فيها أنواع الرياضة البدنية .

إن النبى صلوات الله عليه كان يسابق عائشة رضى الله عنها فى الجرى فهل هناك مايمنع من أن يسابق الأساتذة والطلاب بعضهم بعضا فى الجرى ، وفى غيره من أنواع الرياضة لتزول « الرهبة » من الأستاذ ويحل محلها « الرغبة » فيه وفى الاستفادة من علومه ..

إن السير « روبرت بادن باول » مؤسس فرق الكشافة فى العالم ، ومديرها العام ألقى خطبة فى « مؤتمر التربية الخلقية » الدولى المنعقد فى « جنيف » عام ١٩٢٢ . استهلها بأن قال : « إنه رأى فى معبد شرقى إلاها ذا ثلاثة رءوس . الأول للحب . والثانى للبغض . والثالث للسلم . فسأل عن أعرفها للناس وأكثرها عبادا ؟

فقيل له : إن معظم القرابين والنذر تقدم إلى إلـه البغض ، لا حباً فيه ، ولكن اتقاء له ، وزلفى إليه ليدفع عنهم كيد الكائدين ، وحقد الحاقدين .

ثم قال . يظن الإنسان ـ لأول وهلة ـ أن هؤلاء الناس أغبياء سخاف العقول لخضوعهم ـ إلى هذا الحد ـ لسلطان الخوف ، ولكنه إذا فكر

قليلا رأى أن الخوف يحتكم سلطانه فى هذا العالم وتدير سطوته دولاب أعماله .

ألسنا للمحافظة على السلم نستعد للحرب خوفا من هجوم العدو ؟

ألسنا نخطب ، ونعظ لنشر السلام فى العالم خشية هول الحروب ومصائبها ؟ .

أليست حكومات العالم الراقية تعمد إلى تمثيل جميع الطبقات فيها خوف إغضاب فئة خاصة وقيامها بتشريع خاص ؟ أليس مايسمونه نظاماً فى الجيوش البرية والبحرية قائماً فى الغالب على رهبة العقاب والخوف منه ؟ أليس التخويف سلاحاً فى يد الأقوياء يرهبون به الضعفاء ويذلونهم ؟ أليست عبارات التهديد والتخويف لا تزال متداولة حتى اليوم لصيانة حقوق الأمم واحترامها ؟ أليس الخوف ديناً يدين به الكثيرون منا فلا يعبدون الله ، ولا يؤمنون به لأنه يجب لذاته ، ويعبد لوجهه ، بل لأنهم يخافون عقابه ويخشون عذابه ؟ ألسنا نسلك كثيراً سبيل الخير والفضيلة ، ونترك طرق الشر والرذيلة خوفا من النتائج القانونية أو الوجدانية إذا ظهرت أغلاطنا ، واتضحت مساوينا ، لاحباً فى الخير ، وبغضاً للشر كما كان ينبغى ويلزم ؟ أليس الخوف من الفقر هو الدافع بالإنسان لأن يسعى ويعمل ليكسب المال ويحصل عليه ؟

إلى أن قال : إننا مادمنا على هذه الحال ، وما دام الخوف ـ لا الواجب ـ مستحوذاً على نفوسنا فى جميع الأعمال فلن نستطيع تغيير البيئة غير الصالحة التى نعيش فيها ، لأن الإنسان لايستطيع تغيير حاله الاجتماعية إلا إذا غير أحواله النفسية ، وأطواره الخلقية [1] « إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم »

(١) التربية والتعليم لأستاذنا احمد فهمى العمروسى ص ٣٠٨

وعلى الجملة فمن وسائل إحلال الحب محل الخوف الرياضة ، فهل لنا أن نعنى بها ؟

وتذكرنى كلمة رئيس فرق الكشافة فى العالم هذه بكلمة لزين العابدين على بن الحسين فقد كان يقول :

« إن قوما عبدوا الله رهبه فتلك عبادة العبيد ، وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار ، وقوما عبدوه شكراً فتلك عبادة الأحرار .

وأذكر أنى فى سنة ١٩٤٦ - فى كتابى الأزهر بين الماضى والحاضر -[1] اقترحت مما اقترحت لإصلاح الأزهر فتح أندية رياضية للطلاب ، وأخرى للأساتذة على أن يشترك فى هذه الأخيرة من الطلاب من اجتمعت فيه شروط خاصة كالتفوق فى الألعاب الرياضية ، أو التفوق فى العلم . واقترحت جعل الرياضة البدنية مادة من مواد الدراسة فى المعاهد .

وبهذه المناسبة أقول : إن الأزهر فيما مضى كان يعتبر الألعاب الرياضية حدثاً لا يتفق وكرامة طالب العلم حتى أنى أذكر وأنا طالب فى السنة الأولى من القسم الثانوى أنا قد اتفقنا بضعة أصدقاء على إنشاء ناد رياضى نمارس فيه ألعاب الرياضة ، فلما علم بذلك شيخ القسم يومئذ رحمة الله عليه أحضرنا وأخذ علينا تعهداً بالإقلاع عن هذه الفكرة وإلا نزل بنا مالا يحمد عقباه .

والتدريب العسكرى الآن حصة رسمية يشرف عليها أولو الأمر فى الأزهر مما يدل على أن الفكر الأزهرى يخطو خطوات إلى الأمام .

وأنا على ثقة من أنه سيأتى اليوم الذى أرى ، أو يرى فيه غيرى الأندية الرياضية لأساتذة الأزهر وطلابه يمارسون فيها مختلف الألعاب ، ورجائى أن يكون ذلك قريباً .

---

(١) ص ٨٧